

الفصل الأول

الشكل الخارجى للموشحة

- ١ -

الكلمة وتاريخ غامض

الموشحة كلمة قديمة ، أول بروز لها يعز علينا الإمساك به ، فعلى بروز البحث المعجمى عند العرب إلا أنه لم يخطر ببالهم فكرة المعجم التاريخى ، لا فتقاد الحس التاريخى بالجملة فى العصور الوسطى على الرغم من المعية مقدمة ابن خلدون التى لم تترك أثرا واضحا حتى عند ابن خلدون نفسه عندما كتب تاريخه ، فقد كان العصر مالطة ، وكانت المقدمة أذانا فيها ، وإن ذهب بنا الظن أن الغرب وحده الذى قد سمع هذا الأذان ، واستجاب له .

ومع ذلك فسوف نحتكم الى قاعدة لغوية حكمت التطور التاريخى لدلالات الكلمات فى العربية - وأيضا فى كل اللغات القديمة - وهى أن الاستعمال الحسى قد سبق استعمال المفردة فى دلالات ترتبط بالتجريد أو بالمسميات الحضارية المتطورة . ونقصد بالاستعمال الحسى اطلاق أسماء على مفردات الطبيعة ثم نقلها لتسمية منتجات الإنسان المادية والفكرية . ولا شك أن المرحلة الأولى ، وهى مرحلة الاستعمال الحسى ، قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالأسطورة ونحن نفتقد هذه المرحلة تماما فى وعينا باللغة العربية ، والبحث فيها قد يدخل فى تخصصات عديدة وإلزام بكل اللغات السامية . ونضرب مثلا أوليا بكلمة «عقل» فهى تطلق على الحبل الذى تربط به الناقة ، ثم انتقلت الى الدية ثم انتقلت إلى الحجر والنهى ضد الحمق ثم إلى أداة ذلك (المخ) ثم إلى فعل ذلك المخ (الحكمة والروية والتفكير) . ورغم التدرج من الحسى الى التجريدى ، فإننا نفتقد الاستعمال السابق المرتبط باطلاق التسمية على واحدة من مفردات الطبيعة فى تجرد من الأسطورة أو امتزاج بها ، ومثل ذلك كلمة الشريعة فى انتقالها من النهير الى التقنين السماوى ثم الى التقنين جملة فى مثل قولنا (شريعة الغاب) . إلا أن كلمة الشريعة قد سبقت كلمة العقل بمرحلة إذ نعرفها مذ كانت أسماء لعنصر من عناصر الطبيعة ، ونضرب مثلا آخر موازيا لمثل العقل وسابقا عليه

في كلمة وشيخة فهي ما نبت من القنا والقصب ملتفا ، ثم هي عرق الشجرة ، ثم عرق الأذن ، ثم ليف يفتل ثم يشبك بين خشبتين ينقل فيها البر المحصود وغيره (وهنا نلتقى بأول مرحلة نعرفها عن العقل) ثم هي الرابطة بين الأقارب ثم هي الرابطة بين الاصدقاء والمحبين او صفة لتلك الرابطة .

فالموشع اذن كمصطلح أدبي هو آخر استخدام مستحدث للكلمة حتى بداية الربع الأخير من القرن الثالث الهجري ، لا بد وقد سبقه استخدامات أخرى قديمة منذ المرحلة الحسية الاسطورية حتى مرحلة الاصطلاح حين ولادة المصطلح في بلاط الامير عبد الله الأموي بقرطبة الاندلس في ذلك الربع الأخير من القرن الثالث الهجري ولادة مليئة بتداخل الالوان القوسقزحية .

وبالرجوع الى المعاجم ، والى شيء من تطبيق القاعدة المقترحة فيما مضى ، نرى أن أول استعمال له هو في تسمية الديك اذا كان له خطتان (كالوشاح) . ويجارى هذا الاستخدام في القدم مؤنث الكلمة : موشحة، فهي تطلق على الطباء والشاة والطير : التي لها طرتان من جانبيها .

ويؤيد هذا التصور ميل العرب المبالغ فيه الى اطلاق عشرات (وأحيانا مئات) الأسماء على الحيوانات طبقا لتعدد أحوال والوان هذه الحيوانات ، ونذكر هنا صرخة أبى العلاء في وجه من سبه بقوله : « يا كلب » حيث قال : « الكلب الذى لا يعرف للكلب سبعين اسما » . ثم بعد ذلك ظهور الكلمة في شكل آخر من الاشتقاق في تسمية الماعز حيث تطلق كلمة (الوشحاء) على الماعز السوداء الموشحة ببياض . ثم أيضا سيطرة تداخل الالوان على التسميات الحيوانية ، وارتباطها بطوطمية معينة ، وبضروب من السحر والبقايا الأسطورية . ونضرب مثلا (وتوجد عشرات الأمثال ، ولكننا نختار ما يخدم غرضنا) باطلاق المطوقة على الحمام الذى يحيط برقبته طوق من لون يخالف جملة لون الحمامة . ثم من تراثنا السحرى المعاصر الموروث من قديم الزمان بربط السحرة عملهم السحرى بذبح حيوان له لون معين وخاصة « الديك » . ثم نذكر معجزة البقرة الصفراء الفاقع لونها السارة للناظرين التى وردت قصتها في سورة البقرة . وآخر ما نرجح به هذا القدم لاستعمال كلمة موشع هو تصورنا المنطقى أن الوشاح كحلي للمرأة كان محاكاة لوشاح طبيعى ، فكما وصف الشعر المرأة بصفات الحيوانات الجميلة ، فان أول ثياب لبسها الانسان كانت من جلد الحيوانات ، وستكون مرحلة الغزل والنسيج والتصميم للأزياء بالضرورة فيها محاكاة للالوان البراقة والأشكال الجمالية لهذه الالوان فى الحيوانات عامة والطيور خاصة ، ولا سيما الموشع من الديوك الذى

هو صاحب الغناء اليومي المطرب الذي يوقظ الناس كل صباح ، وملا « ليساليهم العربية » لمدة ألف ليلة وليلة بالصياح الصداح ، الذي يصمت لسماعه « الكلام المباح » ، من شفتى مليكة النساء « شهر زاد » للملك « شهر يار » .

وينتقل استعمال لفظ الموشح من الديك الى خصر المرأة . يقول الحارث ابن خالد في واحد من مدن معبد (الأغاني ج ٩ ص ٢٢٦) :

خصاصة قلق موشحها رؤد الشباب علابها عظم

والموشح ، هو الخصر ينعقد عليه الوشاح . والوشاح كما ورد في المعجم الوسيط : «خيطان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر» ، وهو أيضا « نسيج عريض يرصع بالجوهر ، وتشده المرأة بين عاتقها وكشحيها » . وأما اللسان : « فالوشاح والاشاح على البديل ... كله حلئ النساء ، كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما ، معطوف أحدهما على الآخر ، تتوشح المرأة به » .. والجوهري : « الوشاح ينسج من أديم عريضا ، وتشده المرأة بين عاتقها وكشحيها . والرجل يتوشح بسيفه وبحمائل السيف ، وبلجام حصانه ، وبثوبه . والوشاح السيف . وفي ظني أن الاستعمالات الأخيرة « السيف واللبام والثوب » أقرب الى المجاز .

والكرس مفرد المثني « كرسان من .. » حسب اللسان : « القلائد المضموم بعضها الى بعض ، وكذلك هي من الوشح (جمع وشاح وغيرها) ونحوها . ويقال قلادة ذات كرسين وذات أكراس ثلاثة اذا ضممت بعضها الى بعض ؛ وانشد :

أرقت لطيف زارنى في المجاسد وأكراس در فصلت بالفرائد

ومنه جاء اسم الكراسية ... والكروس الهجيمي من شعرائهم » .

وتفسير كلمة كرس يقلل من قيمة شرح المعجم الوسيط لكلمة الوشاح « خيطان من ... الخ » فقد أخذ شرح اللسان واستبدل خيطان بكرسان . ولعل معه العذر لغموض شرح اللسان ، ولكننا نظن أن الوشاح نوع من القلائد التي لها شكلان : الشكل الاول لا يوجد الا مزدوجا ويطلق عليه « الكرسان » مثل لفظة « المقصان » التي تطلق على هذه الآلة المزدوجة الحد القاطع ، وهو في هذه الحالة يستخدم كحزام يربط به الخصر « خصاصة قلق موشحها » . ويكثر الشعراء المتأخرون من ربط الوشاح بالخلخال حيث يصلصل الوشاح ويصمت الخخال ، لامتلاء في

الساق الريان يمنع الخلخال من الحركة والتصويت وانهضام في الموشح (الخصر) يقلق الوشاح ويحركه فتضطرب أحجاره فيصلص ، ومن ثم فالوشاح في استدارة الخلخال لكنه مزدوج ضفر بعضه على بعض بشكل لا يحول دون اصطدام أحجاره المفصلة رغم انضمامها على بعضها (وأكراس در فصلت بالفرائد) . والشكل الثانى هو نسيج أو جلد عريض تشده المراءة بين عاتقها وكشحيها (أدوارا أدوارا) . وهذا يفسره قول اللسان : «الوشاح كله حلى النساء» .

ومن الطريف ارتباط الكلمة «كرس» بالشعر ارتباطا غامضا ، لكنه قد يكون ذا صلة بالموشح ، فمنها اشتقت كلمة «كروس» ، وهو الهجيمى من شعرائهم . المشكلة من هو الهجيمى من الشعراء ؟ والهجم هو الدخول بغير إذن أو الاغارة . فهل التصغير هنا شبيهه باستخدامنا كلمة شويعر ؟ وهل يصبح الهجيمى هو الشاعر الدخيل على الشعر الذى يغير على شعر غيره ؟ ليست القصيدة الموشحة تبدأ بالاغارة على خرقة الغير أو نص مستعار (غالب الظن) من أغنية شعبية ؟ وكلمة الهجم فى بعض معناها لها معنى ضم الاشياء الى بعضها بعضا ، الامر الذى يتضمنه لفظ كرس ، ومن ثم لفظ الموشح ،، وبيت مهجوم (حسب اللسان هو بيت حلت أطنابه فانضمت سقابه أى أعمدته . فهل انتقل الاستعمال - على سبيل المجاز - الى بيت الشعر المستعار الذى تبنى عليه الموشحة ويطلق عليه خرقة ؟ من المفيد فى هذا المقام أن نحكى قصة : «التقى كثير والحزين الديلى (كان هجاء خبيث اللسان ساقطا يرضيه اليسير ويتكسب بالشعر وهجاء الناس) بالمدينة فى دار ابن أزهري فى سوق الغنم ، فضمهما المجلس . فقال كثير للحزين : ما أنت بشاعر يا حزين ، انما توصل الشئ الى الشئ (نفس وصف البيت المهجوم) فقال له الحزين : أتأذن أمجوك ؟ قال : نعم . وكان كثير قال قبل ذلك ، وهو ينتسب الى بنى الصلت بن النضير بن كنانة :

ليس أبى بالنضير أو ليس اخوتى بكل هجان من بنى الصلت أزهرأ
فان لم تكونوا من بنى الصلت فاتركوا أراكما بأذيال الخمائل أخضرا
فقال له أبياتا بالغة الفحش وخبيث اللسان أخفها :

وما أنتم منا ولكنكم لنا عبيد العصا ما ابتل فى البحر عائم

وتروى الرواية بشكل آخر : كان الحزين الكتانى قد ضرب على كل رجل من قریش درهمين فى كل شهر ، منهم ابن أبى عتيق ، فجاءه لأخذ درهميه على حمار

له أعجف .. وكان كثير مع ابن أبي عتيق ، فدعا ابن أبي عتيق للحزين بدرهمين . فقال الحزين لابن أبي عتيق : من هذا معك ؟ قال : .. كثير .. وكان (كثير) قصيرا دميما . فقال الحزين : أأذن لي أن أهجوه ببيت من شعر ؟ قال : لا ! لعمري لا أذن لك أن تهجو جليسى ، ولكنى اشتري عرضة منك بدرهمين آخرين ودعا له بهما . فأخذهما ثم قال : لا بد من هجائه ببيت . قال : أو اشتري ذلك منك بدرهمين آخرين ، ودعا له بهما . فأخذهما ثم قال : ما أنا بتاركه حتى أهجوه . قال : أو اشتري ذلك منك بدرهمين . فقال له كثير : ائذن له ، ما عسى أن يقول في بيت ! فأذن له ابن أبي عتيق ، فقال :

قصير القميص ، فاحش عند بيته يعرض القراد باسته وهو قائم

فوثب اليه كثير فلكره ، فسقط هو والحمار ، وخلص ابن أبي عتيق بينهما ، وقال لكثير : قبحك الله ! أأذن له وتسفه عليه ! فقال كثير : أو أنا ظننته أن يبلغ بي هذا كله في بيت واحد ! .

وإذا جمعنا الروائيتين ، فالحزين شاعر شعبي يبتز الناس بسلاطة لسانه ، ويصل الشيء بالشيء ، وهو مهزول مثل حماره حتى أن كثيرا على قصره يلكزه فيسقط والحمار . شاعر هزلي لعوب يضحك الناس ، وهو مهزول يكتفى بالدرهمين ، ولغته مأخوذة من الشارع الخلفى لأية مدينة ! وهو في الرواية الأولى يغير على شعر كثير ينقضه ، وربما أصلا «صيغة شعبية» بأخرى من وحى المناسبة (في الأولى ردا على هجوم كثير ، وفي الثانية ؛ مجرد أن رأى وجها قبيحا فوق جذع قزم !) فهل لشعبية وهزلية هذا الأسلوب من الشعر علاقة بالكرس ، الذي شكل مع كرس آخر الوشاح الذي توشح به لون من القصيد المقطوعى الذي تتشكل كل مقطوعة فيه من قسمين : قسم هزلي (الخرجة أو القفل) وجزء جاد (البيت) وهل تصبح كلمة «كروس» صيغة مبالغة (لها معنى التصغير) مثل كلمة «حزين» بالعامية المصرية اليوم ، وصحة اسم الشاعر (وكثير من الأسماء التراثية أفسدها التفصيح) بطل القصتين السابقتين صفة تلصق بالشاعر «الكروس» ، بمعنى ساخر : خائب (١) ؟ .

وأخيرا ترتبط كما رأينا مادة الكلمة في اللسان - بازدواج واقتران شيء بشيء ، وقد انتقل هذا الاستعمال الى البلاغة بمعان متعددة نذكر منها ما يعيننا .

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب من ٢٣ مجلد) ، مؤسسة جنال ، بيروت . ج ٩ ، الرواية الأولى ص ٧ ، والثانية ص ١١ .

يقول الجاحظ : « .. وعلى أن خطباء السلف ، وأهل البيان من التابعين باحسان ما زالوا يسمون الخطبة التي لم تبتدىء بالتحميد وتستفتح بالتمجيد البتراء .. ويسمون التي لم «توشح» بالقرآن ، «وتزين» بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالشوهار» . فالكلمة هنا ليست مرادفا للفعل «تزين» ، فليس القرآن للترزيب ، وإنما معناها : تقرن .

وابن عبد الغفور بعد أن أنهى حديثه عن النثر المغصن بدأ فوراً في الحديث عن النثر المفصل وقال في تعريفه : «وسمينا هذا النوع من البيان المفصل ، لأنه فصل فيه المنظوم والمنثور ، فجاء كالوشاح المفصل ونظير ذلك قول أبي محمد المهلبى :

(رأيته فصيح الإشارة لطيف العبارة

إذا اختصر المعنى فشربة حائثم

وان رام أسهابا أتى الفيض بالمد (١))

فهنا تطرح كلمة الوشاح دون اصطلاح بل هي تشبيهه ينبه لدلالة الكلمة عند الأندلسيين ، وهو قرن الشيء بالشيء دون امتزاج ودون انفصال .

الدلالات السابقة ستكون موضع اختبار في الفصل الأخير من الكتاب .